أحسن القصص التركية

شجار أطفال

للكاتب التركي الكبير رشاد نوري

بقلم السيد خلف شوقي الداودي

— إذن ستعودين في قطار المساء ! مع أنى كنت أتوقع أن تبقى عندنا يومين أو ثلاثة . وكم كنت مسرورة لذلك ! فاذا بك مسافرة هكذا على عجل

— معاذ الله ! أنا أبقى هنا ؟ ولو بقيت لا سمح الله فلا بد لى من أحد أمرين إما الموت وإما الجنون

— وما ذا أقول أنا ؟ ألست ذات روح ؟

— لا، ولكنك لا تملكين عقلاً تدركين به ! وإلا فكيف تستطيع الواحدة صبراً على هذه الحياة الموحشة واستانبول على مقربة منها ؟ وأين تلك الملاهى والمراقص ودور السنما والحدائق الغناء من هذه الحياة المقفرة فى ذرى الجبال وبين أكوام الثلوج وبطون الوديان ؟

— لا تقولى هذا يا عزيزتى (فرخندة) ! ولا تكثرى اللوم ! فأنا لست قانعة بهذه الحياة المملة ولا راضية عنها ، ولكن ما العمل و « الحاجة » هى التى تحملنى على ذلك ؟

— كلام فارغ ... متى ضاقت مدينة « فروق » الكبيرة بك وبزوجك حتى تضطرا إلى السكنى فى هذه البقاع البعيدة والصقع الموحش !

— دعك من هذا المزاح يافرخندة إنك تتجاهلين حالنا ! وإلا فانك تهرفين بما لا تعرفين ! إنك لا تعرفين الحاجة بل الفقر المدقع ، وإذا كنت تجهلين حالنا فاعلمى أنه على أثر خروج زوجى من وظيفته جعل الدائنون يطالبون بمالهم علينا ويدونه دفعة واحدة ... فأصبحنا بين عشية وضحاها عاجزين عن دفع كراء الدار التى نسكنها

— أنا لا أجهل ذلك . لقد أخطأت فى زواجك من هذا الكهل المتقاعد . لا أدرى أية ميزة له أطمعتك فيه ؟ أجماله أم ماله ؟ أحسبه أم نسبه ! أمركزه أم وظيفته ؟ إنه ليس سوى كهل متقاعد قارب العقد الخامس من العمر . فلا مال ولا جمال ! وعدا هذا لديه ابنة من زوجه الأولى المتوفاة .

— أسكتى بالله عليك . . فأنا أيضاً لست صغيرة ! ولدى من زوجى الأول بنتان لا واحدة

— أنت لم تبلغى خمسة وعشرين عاماً بعد وأنت جميلة كالوردة ! ولو لم يتزوجك هذا الرجل لكان هنالك العشرات ممن هم خير منه يتقدمون إليك لترضى بأحدهم بعلا ويكرمون ابنتيك من أجلك ! وهذا السأم الذى تشعرين به بل هذه الحسرة التى استولت على حواسك إنما هى من نتائج رعونتك ! وعند ما تنصت نحن إلى نغمات الموسيقى وأنغام الجاز بند فى ملاهى استانبول تنصتين أنت إلى طنين الذباب فى النهار وعواء الكلاب فى الليل

* * *

(١) نقلا من مجموعة (أحسن القصص التركية) لعام ١٩٣٧ نشرت لأول مرة فى مجلة « الهلال المصور الرسمى آى » التركية التى تصدر فى الآستانة

كانت هذه المحاورة تدور بين أختين فى الرضاعة وقريبتين من بعيد ، قضتا أعوام طفولتهما باللعب معاً، وبعدها دخلتا مدرسة واحدة . ولما أصبحتا على أبواب الزواج تقدم « معلم عود » إلى فرخندة فتزوجها بحب ، وها هى ذى سعيدة بزواجها تقضى أوقات فارغها فى مشاهدة الروايات السينمائية والمراقص وتحيا حياة عصرية

أما ناجية هانم فلم تكن ذات حظ سعيد كأختها إذ أنها تزوجت من ميكانيكى ظهر أنه غير كفؤ لها، وأنه مقامر سكير ، وبعد أن قضت معه ثلاثة أعوام بالشجار والجدال طلقها وفر هارباً مع احدى الراقصات إلى سورية : ولقد أثرت هذه المصيبة تأثيراً سيئاً وكبيراً فى ناجية هانم ولقنتها دروساً فى الحياة كان من أثرها أنها لم تبال بما كان يتظاهر لها به أحد شباب الجيران من حب، وبما كان يحاول به لفت نظرها من غناء وضرب على العود ! وفضلت الزواج من كهل يدعى على رضا عضو محكمة على الشاب المدله بحبها ...

أما هذا البيت « المقفر » « الموحش » كما وصفته السيدة فرخنده فلم يكن سوى بيت ربى واقع فى حديقة كبيرة وفى معزل عن البلدة اضطر على رضا إلى سكناه على أثر إحالته إلى التقاعد لأسباب اقتصادية وجعل يقضى أوقاته فى حرث الأرض وزرعها .

وبينما كانت الأختان تتجاذبان أطراف الحديث كان الأطفال يلهون ويلعبون فى أقصى الحديقة وصراخهم يكاد يصم الآذان ، وهم فرحون جذلون على ما يظهر من أصواتهم وألفاظهم . ولكن سرعان ما تبدلت أفراحهم أتراحاً وانقلب سرورهم إلى شجار ... ولو استرق السمع أحد لسمع صوتاً رقيقاً يدل على أن صاحبه يجهش بالبكاء .. ولقد أثار هذا الصوت غضب السيدة ناجية وأثار أعصابها ، وكانت قد حركتها ذكرى السينما والملاهى والمسارح والمراقص فى الآستانة ، فقامت من مكانها مقطبة الجبين والحاجبين وهي تقول :

« الحق أننى أهضم كل شيء هنا ، وليس لدى ما أشكو منه ، ولا يضيرنى الفقر كما أنى لا أشكو من كبر سن زوجى ، ولكن الذى لا أستطيع الصبر عليه هو هذه الفتاة « باكيزة » ابنة زوجى .. إنها سترمى بأولادى السل بما تسببه لهم من هم وغم .. من يدرى ماذا صنعت بهم حتى حملتهم على الصراخ »

لم تكن باكيزة غير طفلة فى العام الثامن من أعوام حياتها .. لقد كانت جدتها تكفلها إلى ماقبل ستة أشهر ، لكن العجوز المسكينة توفيت بذات الرئة فاضطر أبوها إلى أخذها عنده ..

لم ينقطع صوت بكاء الطفلة فلم تستطع ناجية هانم الصبر فقامت غاضبة إلى شجرة جوز كبير حيث اتخذ الأطفال من ساقيها أرجوحة يلعبون بها ويقضون فيها أوقاتهم . وكانوا مجتمعين تحت ظل الشجرة الوارف .. لقد كانوا أربعة أو خمسة أطفال بينهم فتاة فى السادسة من عمرها تبكى من دونهم ، وكان التراب الذى يعلو وجهها يختلط بدموعها وينحدر على خديها تاركاً آثاراً تشبه السواقى الصغيرة .

ما الذى صنعته بالأولاد أيتها الحية الرقطاء ؟!

هكذا قالت السيدة ناجية هانم تخاطب ابنة زوجها قبل أن تتحقق من منهم المتدى ؛ مما يدل على رسوخ الاعتقاد فى مخيلتها بذنب الفتاة إن صدقاً وإن كذباً .. قالت لها ذلك وهى واقفة أمامها ويداها فى خاصرتها محدقة فيها النظر تريد منها جواباً ! أما باكيزة فلم تجب بغير رفع حاجبيها بامتعاض نافية صدور ذنب منها ! ولقد حمل هذا الطفلة (آفسر) على التعلق بأذيال أمها والتشكى لها من باكيزة واتهامها بعدم هزها فى الأرجوحة :

« أماه احملى هذه الصبية المنحوسة على أن تهزنى فى الأرجوحة » قالت ذلك وأجهشت بالبكاء المصطنع ..

— هزى أختك قليلا ياهذه ! . ما الذى يضرك ؟ .

— ... ...

— الظاهر أن ذلك يمس كبرياء الهانم ! ؟

— ... ...

— ولكنك تعرفين ارتداء الملابس التى أصنعها لك بإذابة نور عينى وتعرفين أكل الأطعمة التى أقضى الساعات الطوال فى إعدادها لك ؟ !

— ... ...

لم تكن السيدة ناجية هانم تقول ذلك بلهجة أم تؤنب ابنتها ، بل بلهجة عدو منتقم يصدر أوامره الى عدو من أعدائه الألداء أوقعه سوء طالعه تحت أمره .

كان وجه السيدة ناجية يحاكى وجوه الأموات باصفراره عند مامدت يدها الى طفلتها وحملتها لتجلسها على الأرجوحة .. ولما أتمت ذلك أمسكت بطرف الحبل وأدنته من ابنة زوجها اليتيمة وصاحت بها تأمرها أن تهز الطفلة أختها . .

أدركت باكيزة أنها ستنال ضرباً مبرحاً من زوجة أبيها إن لم تهز أختها ، فأطاعت مكرهة ومدت يدها بحركة آلية الى الحبل فأخذته من يدها وشرعت تجره وتهز الأرجوحة والدموع تترقرق فى مآقيها . وكاد الأمر يقف عند هذا الحد لولا حادث بسيط . فقد وقعت الطفلة « آفسر » من على الأرجوحة وبان على شفتيها أثر دم ! . ومع أن الوقعة كانت قضاء وقدراً الا أن ناجية هانم إعتقدت كل الاعتقاد أن ذلك لم يكن إلا إنتقاماً وتشفياً من باكيزة .. فقامت القيامة وفار التنور ... وأخذت تولول وتثور وتهددها بعظائم الأمور .

***

عاد على رضا بك بعد الحادث بقليل إلى داره وكان أول ما بادرته به زوجه الشكوى من ابنته . فقال لها :

« رويدك ! لا تهتمى كثيراً فانا أعرف أن جدتها ربتها تربية سيئة وأنها الآن بحاجة الى من يربيها تربية صحيحة » قال ذلك وصاح بابنته بصوت أجش .. فجاءته خائفة وجلست وهى تعلم مايضمره لها أبوها . فأمسكها من يدها كما يمسك الشرطى بيد المجرم وذهب بها الى شجرة الجوز الكبيرة وأوقفها أمامه يحاكمها كما يحاكم المجرمون . . . جلس على رضا قبالة ابنته باكيزة .. وجعل يمثل الدور الذى كان يقوم به لما كان عضواً فى المحكمة وشرع يحقق مع باكيزة بتلك الروح : روح « المستنطق » القديم . أجل إنه كان كحاكم حقيقى فى هذه الساعة .. أمامه « متهمة » وهنالك مدع . أما « التهمة » الموجهة اليها فتنحصر فى :

« تعمدها إسقاط أختها الصغيرة من الأرجوحة وتسببها فى جرح شفتيها » وأخيراً صاح بالتهمة الصغيرة بصوت خشن يقول :

— أتعجبك هذه الأعمال ؟

— ... ...

— لقد أصبحت فتاة مراهقة وفى الثامنة من عمرك فهلا استحييت قليلاً ؟ وهل تعامل الأخت أختها هذه المعاملة ؟

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان ، ولكن لم يمر أسبوع من الأشهر الستة التى حللت فيها عندنا دون شكوى أمك منك ... رحم الله جدتك ... يظهر أنها كانت تاركة لك الحبل على الغارب ولم تردعك عن هذه الوقاحات وأمثالها ... والآن لنترك ما مضى إلى ما مضى ... وهيا عدينى بأنك سوف لا تعيدين سيرتك الأولى وستكونين ساكنة هادئة راضية مرضية مطيعة أوامر أمك تفعلين ما تؤمرين

لم تجب باكيزة أباها . وكل ما فعلته أنها رفعت حاجبيها الكثيفين ونكست رأسها إلى الأرض بذل وانكسار شأن اليتامى . أما وجهها فقد كان يصعب تبين اللون الذى كساه لظلمة المساء التى سادت

لقد فسر على رضا بك الوالد هذا السكوت بالعصيان ... فزاد ذلك فى حنق الحاكم القديم وحدته فما كان منه إلا أن مد يده إلى الفتاة وأمسكها من كتفها الأيسر وهزها هزاً عنيفاً وصاح بها والغيظ آخذ منه مأخذه :

— إنى أكلمك يا شريرة ، فلم لا تجيبيننى ؟ وهل أصبحت صماء بكماء !

عند ذلك رفعت باكيزة رأسها وعيناها ممتلئتان بالدموع وقالت :

« إنى لم أعص أمى أبداً فلقد كنت أعمل كل ما تأمرنى به ، وفوق هذا ألاحظ إخوتى وأخواتى كأحد الخدم ... وإننى لم أقم بأية حركة تدعو إلى الشكوى ؛ ولكن مع هذا كله لا ترضى عنى ولا أدرى ما الذى أعمله حتى أجلب رضاها ... ؟ »

قالت باكيزة ذلك وهى ترفع يديها نحو أبيها مسترحمة سائلة أن يدلها على طريقة لإرضاء زوجه والدموع تسيل على خديها ... « إنهم يعتدون على ويضربوننى أشد الضرب ... ولكنى لم أشتكهم إليك ، وسوف لا أشتكى لأنى أعلم أنك لن تصغى إلى شكواى ! » وأردفت قولها هذا بالكشف عن ذراعيها وصدرها ورقبتها وطلبت من أبيها أن ينظر إلى آثار العصى والضرب المبرح الذى كانت تتلقاه من أخواتها وأمهن . وشكت إلى أبيها ما تقاسيه من ظلم أخواتها اللواتى أصبحن ألد أعدائها مقلدات أمهن ! وكيف أنهن يعاملنها معاملة ظالمة : « إنهن منعننى من الجلوس فى الأرجوحة ... لا لسبب سوى أننى أهز نفسى فى الهواء عالياً أكثر منهن ! لقد أبحن الجلوس فى الأرجوحة لجميع بنات المحلة إلا إياى ... زيادة فى التكاية بى ! . وكلما حاولت التقرب من الأرجوحة يهاجمننى بالعصى والحجارة والسب والشتم ... وفوق كل هذا يأمرننى بهز البنات الغريبات ، والويل لى إن رفضت لهن أمراً ! هذا قليل مما أقاسيه من الأطفال وأمهن كل يوم ... لقد كنت أتلقى كل هذه المعاملات وأنا

صابرة ولم أنبس ببنت شفة لئلا أسبب لك آلاماً بل كنت أكتمها عنك ... ولكن يظهر أن كل هذا لم يرد لهم غليلاً فأرادوا أن يزيدوا فى الإيقاع والتنكيل بى فوشوا بى إليك ... »

كان على رضا بك ينصت إلى ابنته باكيزة وهو يكاد يتميز من الغيظ من هول ما يسمع ... ولقد لام نفسه لوماً شديداً لعدم انصاله بفتاته باكيزة كل هذه المدة ... رفع بصره إليها فخيل إليه أنه لا يرى طفلة فى الثامنة من عمرها ، وإنما يرى سيدة رزينة عاقلة ، ورأى عينيها السوداوين تفيضان بالدموع كما يفيض الينبوع بالماء . لقد رأي من بين أهدابها الطويلة المبللة بالدموع صورة أمها المرحومة تبتسم وهى ترنو إليه بعينيها الجميلتين

كيف ذهبت عن باله باكيزة ؟ ... كيف قصر فى السؤال عنها والدفاع عن حقوقها وهو الذي سلخ ثلاثين عاماً من حياته فى الدفاع عن المظلوم وإحقاق الحق وردع المعتدين ؟ وكيف يجوز لرجل كعلى رضا بك أن ينض الطرف عن هذه الاعتداءات التى وقعت على ابنته ؟ !

لقد انتبه ضمير الحاكم السابق ، وامتزج بالحنان الأبوى الذى لا يصبر على حيف يلحق بثمرة فؤاده . فنظر إلى ابنته وهو يحاول أن يخفف من التأثير الكبير الذى استولى عليه وراح يدمدم ويكرر ما قالته له قبل لحظة :

« وسوف لا أشتكى لك لأني أعلم أنك لن تصغي إلى شكواى ! »

إن هذا ليس بصحيح يا بنيتى . من قال إن الآباء لا يستمعون إلى شكوى أبنائهم ؟ إن هذا هراء ! !

ضحكت الطفلة عندما رأت أباها يتأثر لمصابها .

وقالت : كانت جدتى المرحومة تقول لى دائماً :

« تعتبر إحدى عينى الأب عمياء فى حياة الأم ، أما بعد وفاتها فيصبح أعمى ولو كان بصيراً .. »

وأما سبب عدم بث شكواى إليك يا أبت فهو أننى لم أشأ أن أسبب لك آلاماً . وهب أنى فاتحتك بكل هذه الاعتداءات فماذا تستطيع أن تصنع ؟ ..

كان على رضا بك محنياً رأسه إلى الأمام ينظر إلى الأرض غارقاً فى بحر عميق من التفكير ... لقد تصور حياته التى يحياها مع زوجه الثانية ، وكيف كان ضعيفاً أمامها ضعفاً لا يكون إلا من الذين قد تجاوزوا سن الكهولة ، ضعفاً هو أقرب إلى الذل منه إلى الضعف ، وكأن باكيزة الطفلة قد أدركت هذا الضعف فى أبيها عندما قالت :

«وأنت ماذا تستطيع أن تصنع ؟» ولكن لا ، إن هذا الموظف العدلى القديم لا يشبه غيره من الرجال ... وليس من الذين يقبلون أن يحيوا فى ذل وخنوع واستكانة وعبودية ، فقرر لساعته أن ينفض عنه غبار الذل . والتفت إلى ابنته وقال لها وفى نبرات صوته حزم ظاهر :

— اسمعى يا بنيتى ! إننى أنا أبوك ، فلا تيأسى ولا تخافى ولا تحزنى ! لن يعتدى عليك أحد بعد اليوم . قال ذلك ومد يده إلى الطفلة ورفعها فى الهواء يلاطفها ، ومن ثم أدناها من فمه يقبلها وهو يتفرس فى عينيها يتخيل فيهما صورة زوجه ويطلب منها العفو على ما فرط منه فى جنب ابنتها باكيزة

* * *

لقد انقلب على رضا بك فى ثوان معدودات إلى

شخص آخر فلقد تبدلت معاملته لزوجته وتغير حاله مع ابنته باكيزه . طلب من جميع من فى البيت أن تعامل باكيزه معاملة ممتازة كما لو كانت أميرة صغيرة . لقد جعل يسأل ابنته مساء كل يوم عند عودته إلى البيت عما إذا كان قد اعتدى عليها أحد فى غيابه . لقد كان يريد أن يقف منها على كل صغيرة وكبيرة تخصها ... وعند ما يبلغ مسامعه وقوع اعتداء عليها أو أن أحداً تطاول عليها باللسان تقوم قيامته وينهال على زوجه وبناتها لوماً وتأنيباً وضرباً إذا اقتضى الأمر

لكن هذا الحال لم يدم طويلا فلقد ضاقت ناجية هانم بهذه الحياة ذرعاً ولم يبق فى قوس صبرها منزع فتصادمت مع زوجها وتشاجرا وتقاذفا بأنواع السب والشتم ! ومرة بلغ الجدال بينهما حداً لم تطق معه صبراً فأغمى عليها من شدة التأثر وأخيراً قرّرا الفراق بالطلاق

* * *

كانت آخر ليلة من ليالى ناجية هانم فى البيت ، فهذا الأثاث مرفوع وهذه الملابس قد حفظت فى الصناديق ، ويسود البيت سكون يشبه سكون القابر

كلاهما مصران على الفراق .. فالسيدة ناجية قد قررت مغادرة البيت مع طفليها إلى « استامبول » وكانت ملامحها لا تدل على رغبتها فى هذا الفراق ، أما على رضا بك فكان وجهه أشد اصفراراً من وجوه الموتى .. وعيناه غائرتين فى المحاجر .. ها هو ذا يقطع الحديقة ذهاباً وإياباً لا يستقر على حال من القلق .. فهو لم يدخل غرفة نومه إلى قبيل الفجر . ولقد حمله فرط يأسه على الاضطجاع على الأريكة وقضاء ليله عليها بدلا من السرير

وهذه باكيزة قد انكمشت فى جلدها — كمن ارتكب ذنباً يخاف العقاب عليه — وقبعت فى مكانها خائفة وجلة غير جاهلة بأنها سبب كل هذه « الزوبعة » التى ثارت فى البيت فهدمت أركانه ...

لم يغمض لها جفن طول الليل . ولما انبلج الفجر بنوره ولاح ، نزلت إلى الطابق الأول ومرّت فى طريقها بغرفة أبيها وكان لا يزال مضطجعاً على الأريكة غارقاً فى منامه . فنظرت إليه نظرة كلها حبّ وامتنان وتذكرت أنه قد قام بحقها وضحى براحته فى سبيلها ، وتذكرت أنها وإن كانت ابنته وأنه يحبها حباً جماً إلا أنه سوف يتأثر جداً لفراق امرأته .. وربما لا يتحمل آلام الفراق ...

لقد أراح النوم على رضا بك فذهب عنه الغضب فانبسط وجهه وكان المتأمل يرى فيه الاضطراب والألم الممض ...

وقفت باكيزة تفكر ... وبعد التفكير العميق قرّرت فى نفسها أن تعمل من أجل راحة أبيها فتختفى عن الأنظار حفظاً لأركان هذا البيت من الانهيار وإكراماً لأبيها ... فدخلت إلى الغرفة تمشى على أصابع رجليها حذراً من أن توقظ أباها ، فقبلت جبينه وغابت عن الأبصار ... ولم يقفوا لها على أثر حتى كان اليوم الثالث من اختفائها ... ففى ذلك اليوم ، وجدوا جثتها فى بئر مهجورة قرب قصر قديم ... لقد شاهدوا صخرة كبيرة مربوطة فى عنقها بثوبها ، واتضح لهم أنها تعمدت ربط هذه الصخرة بيدها خوفاً من أن يكون الماء ضحضاحاً فلا يكفى لقتلها ...

المسيب — « العراق » ع . شرقى الدارودى